وتقلب القلوب والأبصار : إما أن تتقلب وتتغير في أنفسها : وهو أن تضطرب من الهول والفزع وتشخص كقوله : " وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر " الأحزاب : 10 . وإما أن تتقلب أحوالها وتتغير فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعا عليها لا تفقه وتبصر الأبصار بعد أن كانت عميا لا تبصر " أحسن ما عملوا " أي أحسن جزاء أعمالهم كقوله : " للذين أحسنوا الحسنى " يونس : 26 والمعنى يسبحون ويخافون ليجزيهم ثوابهم مضاعفا ويزيدهم على الثواب تفضلا . وكذلك معنى قوله : " الحسنى وزيادة " يونس : 26 المثوبة وزيادة عليها من التفضل . وعطاء ا تعالى : إما تفضل وإما ثواب وإما عوض " وا يرزق " ما يتفضل به " بغير حساب " فأما الثواب فله حساب لكونه على حسب الاستحقاق .

" والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمأن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد ا عنده فوفاه حسابه وا سريع الحساب " السراب ك ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري . والقيعة : بمعنى القاع أو جمع قاع وهو المنبسط المستوي من الأرض كجيرة في جار . وقرئ : (بقيعات) : بتاء ممطوطة كديمات وقيمات في ديمة وقيمة . وقد جعل بعضهم بقيعاء بتاء مدورة كرجل عزهاة شبه مايعمله من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التي يحسبها تنفعه عند ا وتنجيه من عذابه ثم تخيب في العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدر بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه المطش يوم القيامة فيحسبه ماء فيأتيه فلا يجد ما رجاه ويجد زبانية ا عنده يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق وهم الذين قال ا فيهم : " عاملة ناصبة " الغاشية : 3 ، " وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا " الكهف : 104 ، " وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا " الفرقان : 23 وقيل : نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية وقد كان تعبد ولبس المسموح والتمس الدين في الجاهلية ثم كفر في الإسلام .

" أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل ا له نورا فما له من نور " اللجي : العميق الكثير الماء . منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر . وفي " أخرج " ضمير الواقع فيه " لم يكد يراها " مبالغة في لم يرها ؛ أي : لم يقرب أن يراها ؛ فضلا عن أن يراها . ومثله قول ذي الرمة : .

إذا غير النأي المحبين لم يكد ... رسيس الهوى من حب مية يبرح .

أي لم يقرب من البراح فما باله يبرح ؟ شبه أعمالهم أولا في فوات نفعها وحضور ضررها

بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئا ولم يكفه خيبة وكمدا أن لم يجد شيئا كغيره من السراب حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار ولا يقتل ظمأه بالماء . وشبهها ثانيا في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب ثم قال : ومن لم يوله نور توفيقه وعصمته ولطفه فهو في ظلمة الباطل لا نور له . وهذا الكلام مجراه مجرى الكنايات ؛ لأن الألطاف إنما تردف الإيمان والعمل الصالح . أو كونهما مترقبين ألا ترى إلى قوله : " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا " العنكبوت : 69 وقوله : " ويضل ا الظالمين " إبراهيم : 27 وقرئ : (سحاب ظلمات) على الإضافة . وسحاب ظلمات برفع " سحاب " وتنوينه وجر " ظلمات " بدلا من " ظلمات " الأولى .

" ألم تر أن ا يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه وا عليم بما يفعلون و ملك السموات والأرض وإلى ا المصير " " صافات " يصففن أجنحتهن في الهواء . والضمير في " علم " لكل أو . وكذلك في " صلاته وتسبيحه " والصلاة : الدعاء . ولا يبعد أن يلهم ا الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقية التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها .

" ألم تر أن ا يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار يقلب ا اليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار "